قصة ثور الوحش ودلالتها الرمزية في الشعر الجاهلي

أنور عليان أبو سويلم *

* حصل على الدكتوراه في الأدب العربي القديم من كلية الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٨٠ .
يعمل أستاذا مساعدا ورئيسا لدائرة العلوم الإنسانية بجامعة مؤتة ـ الأردن .

الملخص

يناقش هذا البحث قصة ثور الوحش ودلالاتها الرمزية في الشعر الجاهلي في ضوء الموروث الديني والأسطوري لعرب الجاهلية، الذي شكّل الصورة عند الشعراء الجاهليين تشكيلاً رمزياً، بحيث كانت الصور المُكَرَّرة في قصة ثور الوحش تنبع من التصور الديني عند الشعراء، إذ أن الشكل الفني في الشعر عميق الجذور يصدر عن وعي جمعي في ضمير الأمة، لا عن وعي فردي عند شاعر محدد.

ومن ثَمَّ كانت قصة ثور الوحش في الشعر الجاهلي تحوى كثيراً من الرواسب العقائدية، والرموز والإيحاءات والإشارات، شكلّت الشعر الجاهلي تشكيلاً أسطورياً شبه كامل. وقد استقصى البحث الصور الشعرية الجاهلية التي وجهت قصة ثور الوحش تشكيلاً رمزياً، وانتهى إلى أن قصة ثور الوحش في الشعر الجاهلي تحوى طقوس الاستسقاء التي مارسها العرب الأقدمون باستخدام البقر والنار، وأن الثور كان طِلَّسماً سحرياً يُتَوسَّلُ به لاستنزال المطر.

هنـاك ظاهـرة عامـة تشيـع في الشعـر الجـاهلي وتسمه بميسم خاص متميز، وهي ظاهرة التشبيه المستطرد، المسرف في الاستطراد، وهذه الظاهرة جديرة بالتفكير والتحليل، وتوشك أن تكون أكثر هذه الاستطرادات في موضوع واحد، وهو الحديث عن مشاهد الصيد، ووصف حيوانات الصحراء الوحشية.

وينفرد الثور الوحشي باهتمام شديد عند أكثر شعراء الجاهلية، فبعد أن يفرغ الشعراء من وصف ناقة الرحلة يلتفتون إلى الثور الوحشي باهتمام خاص، ويقصون حكايته، فيصفون وحدته وانفراده عن قطيـع الـوحش في رملة نديـة أو في روضـة معشبـة أو في بُرْقـة جرداء مختـالاً بقوته، معتزاً بعنفوانه، هانئاً بوحـدتـه. ثم يصفـون لونـه وقـوائمه وأعضاءه وقرنيه وعينيه وجلده وأنفه، وغالباً ما يكون أبيض اللون كالثوب اليماني أو كالكوكب الدُّرِّيّ كأَنَّما كُسي خرزاً قشيباً مجلواً؛ لكن طيب العيش لا يدوم، فأغباش الدجى تتكاثف، وأمواج الليل البهيم تكاد تذهب بناظريه، والرعد المزمجر يكاد يصمه ويحرقه، وقطرات الندى والمطر تبدأ بالانثيال على متنه كالدر المنثور.

وتتحـول الطبيعـة إلى العنف، فيـزداد هبـوب الريح الباردة، والبرد الحاصب، والمطر المنصب، ويندفع الثور إلى الاحتماء بأكناف شجرة وحيدة، وغالباً ما تكون شجرة الأرطى الملاذ الوحيد له، يحتفر تحتهـا كنـاسـاً بأظـلافـه الصلبـة، ويبقى ساكناً صامتاً خاشعاً، يراقب البرق والرعد، وينتظر الشمس كراهب مُتَهجِّد في صومعته، أو كحِبرٍ متعبِّد في كنيسه، لكن العاصفة تهيل ما بناه من التراب، وتكاد الأرض تميـد من أسفـل منـه، ويكـاد السيل يغرقه، وتزداد برودة الليل ووحشته، وتأخذ قطرات الندى المتجمـد تتسـاقـط على ظهـره كحبـات اللؤلؤ، فيقضي ليله مؤرقاً مسهَّداً، وتزداد حاله سوءاً، وتبدأ الهموم تداهمه، والهواجس تخيفه، لا يغمض له جفن، ولا تسكن له جارحة.

ويأخـذ الثـور بالابتهـال والتـوسـل، فينقطـع السيل، وتنكشف الظلمة، ويأتي الفرج. وما إنْ يصـدع الـدُّجى شفق الفجـر الأحمـر، ويعكس على ظهره لوناً أشقَر كأَنَّه قنديل مسجور، وتتبدد أستار الظلمة حتى يظهر الصياد العبوس الأغبر يشلي كلابه الضامرة المدرَّبة، فينفتل الثور هرباً ضنّاً بحياته، ومـا إنْ يشعـر الثـور باقـتـراب الخطـر من كراعيـه حتى ينعطف على الكـلاب طعنـاً ومشقاً في نحورها وجواشنها، فتتساقط صرعى، ويخرج الثور من المعركة ظافراً يهتز مرحاً ونشاطاً، مغتبطاً بسلامته وانتصاره.

ويلتفت الشعـراء إلى أحـوال الثـور النفسيـة، فيصفون تردده، وخوفه وهلعه، وجرأته، وتوتره، وغضبه، وضيقه، وصبره، وجزعه، وقلقه وسهاده، ثم إقدامه وإرادته وعزمه، وسروره وإشراق وجهه، وفوزه وحبوره.

هذه هي الخطـوط العـريضـة في قصـة ثور الـوحش الـذي يشبـه به الشعـراء نوقهم، اختصرها بعضهم، وفصل فيها كثير منهم، لكن خطوط القصة الكبرى تبقى ثابتة على الرغم من الاختلاف في

الجزئيات والتفصيلات. ويمكن أن نمثل لهذه القصة بقصيدتين مختارتين: الأولى لزهير بن أبي سلمى، يقول فيها: (ابن ابي سلمى، ١٩٤٤: ٤٢)

كأنَّ كُوري وأنَّساعي ومِيثرتي ... كسوتهنَّ مُشِبَّاً ناشِطاً لَهَقَا
رعى بغيثٍ لأوراكٍ فناصفةٍ ... من الشتاء فلمَّا شَأْوه نَفِقا
وقد يكون بها حيناً تَعَزُّبُهُ ... وقد تَطرَّف من حافاتها أَنِقَا
عِشْراً وخِمْساً فقد طابت مراتعُهُ ... من الربيع ولم يَبْدُنْ وقد زَهَقَا
فسار منها على شَيْمٍ يؤمُّ بها ... جنبَيْ عَمايةَ فالرَّكَاء فالعُمَقَا
فأدركته سماءٌ بينها خَلَلٌ ... تُرْوِي الثرى وتُسيلُ الصَّفْصَفَ القَرقا
فبات معتصماً من قَرِّها لَثِقاً ... رشَّ السحابُ عليه الماء فاطَّرَقَا
يُمْرى بأظلافه حتى إذا بلغت ... يُبْسَ الكثيب تداعى التُّرْبُ فانخَرَقَا
مُوَلِّي الريح روقيه وجبهته ... حتى دنا مِرزَمُ الجَوْزاء أو خَفَقَا
ليْلَتَهُ كلَّها حتى إذا حَسَرتْ ... عنه النجومُ أضاء الصبحُ فانطلقا
فصبَّحَتْهُ كلابٌ شدَّها خَطِفٌ ... وقانصٌ لا ترى في فِعْله خُرُقا
زُرْقُ العيون طواها حسنُ صنعته ... مجوَّعات كما تطوى بها الخِرَقا
حتى إذا ظنَّ قرنَ الشمس غالبةً ... وخاف من جانبيه النَّهْزَ والرَّهَقا
كَرَّ ففَرَّجَ أولاها بنافذةٍ ... نجلاء تُتْبِعُ رَوْقَيه دماً دفقا[1]

والثانية للبيد بن ربيعة العامري، يقول فيها: (العامري، ١٩٦٢: ٧٦)

كاخِنسَ ناشطٍ جادت عليه ... ببرقة واحفٍ إحدى الليالي
أَضَلَّ صُوَارهُ تَضَيَّفَتْهُ ... نَطُوفٌ أمرُها بيد الشَّمال
فبات كأنَّهُ قاضي نُذُورٍ ... يلوذُ بغَرْقَدٍ خَضِلٍ وضَالِ
إذا وَكَفَ الغصونُ على قراه ... أدار الروق حالاً بَعْدَ حال
جنوحَ الهالكيّ على يديه ... مُكبَّاً يجتلي نُقَبَ النِّصال
فباكره مع الإشراق غُضْفٌ ... ضواريها تخب مع الرِّجال
فجال، ولم يُجُلْ جبناً، ولكن ... تَعَرُّضَ ذي الحفيظة للقتال
فغادر ملحماً وعَدَلْنَ عنه ... وقد خضب الفرائص من طحال
يشُكُّ صفاحها بالرَّوْق شَزْراً ... كما خرج السِّراد من النِّقال
وولَّى تَحْسِرُ الغمراتُ عنه ... كما مرَّ المراهن ذو الجلال
وولَّى عامداً لطيَّات فلج ... يُراوحُ بين صَوْنٍ وابتذال
تشقُّ خمائل الدهنا يداه ... كما لعب المُقامر بالفِيَالِ
وأصبَحَ يَقْتَري الحَوْمان فَرْداً ... كَنَصْلِ السَّيْف حُودث بالصِّقال[2]

فاللَّهَق في «قصيدة زهير» هو الأبيض في موضع الكَرَم لنقاء عِرْضه ممّا يُدَنّسه (اللسان، مادة لهق) وهي صفة معنويّة أكثر منها صفة حسيّة، يَشِمُ الثور الطّاهر البرق بعد تَعَزُّب طويل في روضة نديَّة، يبحث عن المطر ويَطْلبه، ويصدق حَدْسه فالمطر ينصبّ عن متنه، وهو يستقبل المطر راضياً بقرونه وجبهته، يتأذّى منه وهو راغب فيه، ينتظر الشمس بفارغ الصَّبر، فيضيء الصبح ويدخل فيه محبوراً.. فتنطلق خلفه كلاب الصائد المجوَّعة، وقبل أن تأفل الشمس يكرُّ عليها طعناً ومَشْقاً في صدورها وجَوَاشنها، ويتركها صرعى.

أما «لبيد» فيجعل ثوره يستقبل المطر دون مقدّمات، فيسكن تحت شجرة يتبتّل منفرداً يطلب الشَّمسْ، والبرق يلمع على ظهره ومن أسفل منه شرراً وكأنّه صيقلٌ يجتلي سيفاً، وتعود الكلاب مرةً أخرى في قصة الثور الوحشي تلاحق الثور وتدفعه من الظلمة إلى النور، وتلجئه إلى سفك الدم، فينتصر في المعركة ويخرج إلى الآكام يلمع على قِنانها كما يلمع السيف الصقيل.

فالثور في كلا القصيدتين لا نراه في قطيع الوحش وإنّما هو متوحّد منفرد، فيه صفة البياض والنقاء، يلازمه المطر يغسله ويطهّره، وتلازمه الشجرة التي يلوذ في كنفها صامتاً هادئاً متبتّلاً، والكلاب هي التي تطلبه ـ عِلْماً بأن العرب صادوا الثيران بالفهود المدرَّبة، وبالقِسِي، وبالمُخَاتلة، وغيرها من أدوات الصَّيْد ـ والثور في كلا القصيدتين يطلب الشمس وينتظرها بشوق ولهفة.. ويمكن بوضوح أنْ نلحظ النار التي يشعلها «لبيد» على مَتْن الثور أو بين قوائمه، والتي أرادها صفة له وهو ينطلق جذلاً بانتصاره.

وهناك قصائد كثيرة تُعْنى بوصف ثور الوحش، فَصَّلَ فيها بعضهم وأطال، واجتزأها بعضهم واختصر، لكنهم جميعاً مَعْنِيُّون بقصة ثور الوحش، وهي ليست قصة ساذجة بلهاء لا مغزى لها، إنما تحمل ثقلاً وجدانياً وعاطفياً ودينياً عظيماً، فيها شوق وعذاب، ورغبة ورهبة منذ أن كان الانسان القديم يُبَجِّل الثور ويقدِّسه، وقد بقيت أصداء من مشاعر التقدير والتعظيم في الشعر الجاهلي، ولا شك أن الشعر الجاهلي قد ضاع منه التراث الديني الجاهلي كله تقريباً لتقادم عهده وبعد أمده، ولأن الرواة ضربوا عنه صَفْحاً وأهملوه، ولم يبق منه إلا إشارات ضئيلة تومىء إلى الديانات القديمة إيماءً وترمز إليها رمزاً، لم يستطع تفسيرها علماء البلاغة في العهود الإسلامية اللاحقة، وظنوها أساليب فنية، فقالوا بـ «التخلص» و «الاستطراد» فالشاعر الجاهلي في ظنهم ينتقل من موضوع وفاه حقه إلى موضوع آخر بأداة تخلص، ثم يستطرد إلى وصف مظاهر الصحراء المختلفة التي شغف بها وسجلها تسجيلا دقيقا في شعره.

وقد تحولت قصة ثور الوحش إلى تقليد فني بعد أن كانت ذات مغزى ديني، انقرضت طقوسها وشعائرها، ولم يبق منه سوى أشكال فنية محددة تنافس في إبرازها شعراء الجاهلية.

وهذا الشكل الفني في الشعر الجاهلي لم يكن نابعا من الوعي الفردي لشاعر جاهلي واحد أو أكثر، وإنما هو تعبير عن إحساس جَمْعي عام، وإيمان عقائدي متّحد في ضمير الأمة.

وليس وصف الثور هامشياً أو عارضاً في الشعر الجاهلي، فنقول إنَّ الشعراء يشبهون نوقهم به لصلابته وقوته، وإنما جاء وصف الثور أساسياً في كثير من قصائد الشعر الجاهلي، ونحس أن بعض الشعراء لا يريد من قصيدته غير وصف الثور دون سائر أغراض القصيدة. ويحوى وصف ثور الوحش كثيراً من الرموز والإيحاءات والإشارات التي تحتاج إلى التأمل وإعادة التفكير في هذه القصة ـ التي تبدو ساذجة بسيطة ـ قصة ثور الوحش في الشعر الجاهلي.

ويمكن أن نلحظ في وصف ثور الوحش ملامح أساسية، هي:

(أ) التَّفَرُّد المطلق، والتوحُد، والعُزْلة، فالثور دائماً منفرد كراهب منقطع للعبادة في صومعته، يقضي ليله متأملاً متفكراً خاشعاً، في سُمُوّوطُهُر وتَرَفُّع، وأحياناً نلحظ توتُّره وأرقه وتحفُزه وتوجُسه، والثور لا يمكن أن يعيش إلّا في قطيع من البقر، لكن الشعراء جميعاً أرادوا له التوحد والتفرد.

(ب) يحفر الثور دائماً كناساً متواضعاً هو بمثابة الصومعة، ينزوي فيه الثور متبتلاً مصلياً متأملاً مترقباً، ويختار الشعراء له صفة القديس المتهجِّد أو الحَبْر المتعبِّد.

(جـ) نزول المطر يبدو أحياناً نتيجة لتوسلات الثور وتضرُّعه وترقبه وصلواته، وعلى الرغم من احتماء الثور بالأرطى فإنَّ المطر يغمره غمراً، ويغسله غسلاً، وكأنما يريد له الطُهر والنقاء والصفاء.

(د) الثور دائما يُفَضِّل الأَمْن والسلم، ولا يطلب العنف والقتال، ولا يؤذي الكلاب إلا دفاعاً عن النفس.

(هـ) غالبا ما يأتي وصف الثور بعد الحديث عن هجرة القبائل التي تعرضت للمجاعة والجفاف والقحط؛ لأن الحديث عن الأطلال الدارسة والظعائن المرتحلة إعادة لذكريات المجاعة والجفاف التي ألجأت قبيلة المحبوبة إلى هجر الوطن بحثاً عن الماء والمرعى، والشعراء يرحلون بحثاً عن المرأة أو الحب الضائع، وبحثاً عن الاستقرار، أو بحثاً عن الماء المفقود، ويجسدون رغبتهم في الماء والمطر بقصة ثور الوحش.

(و) في الليلة الليلاء المطيرة يلوذ الثور بشجرة الأرطاة يطلب عندها الوقاية والحماية، وكأنما يلفتنا إلى نتاج ذلك المطر المنصب.

(ز) يبرز الثور ـ بعد وصف الناقة ـ بصورة القوَّة المكتملة، والعظمة القاهرة، والإرادة الخالقة، والجبروت المتحكّم، أمّا في المراثي فيبطش الموت بالثور؛ لأن مجتمع الآلهة في المعتقد القديم فيه بعض صفات مجتمع البشرية؛ التعب والألم والضعف، ويخضع لسَطْوة الدَّهر وبطش الموت.

(ح) يقرن الشعراء صورة الثور بصورة النجم الثاقب والشهاب المنقضّ، والشِّعْرى الواضحة،

والبرق الخاطف، والسيف الصقيل، وعندما يلمع البرق في أنحائه، يبدو الثور كأنه مصطلٍ ناراً فيظهر شخصه مُصْفَرّاً من أشعتها. . وهذه الصور جميعاً لها علاقة ما بإشعال النار.

(ط) يقابل الشعراء في وصف الثور بين صورتين متناقضتين: إرادة الحياة، وإرادة الموت؛ فالثور يريد الحياة، والكلاب تريد له الموت. وصورة الظلمة والنور، فالثور يريد النور وينفي العتمة؛ لان الظلمة تثير الفزع والهلع والتوتر والأرق، أما النور فيكشف عن الأمور ويوضّحها، لكن النور يستثير الفزع المستتر في أعماق الظلمة. ويصحب الظلمة شدة ومعاناة بينما تأتي الشمس بالأمل ودفء الحياة، والفرج المنتظر.

وصور ثور الوحش هذه يمكن أن ترتد إلى ذلك التراث الديني الجاهلي الذي انطمست معالمه، وانمحت آثاره، وكأنها الأطلال الدّارسة التي أغرموا بوصفها.

ويمكن أن نطالع صورة ثور الوحش في المعتقدات القديمة في إطار من القدسية والتبجيل:

فهو « إله » يرمز إلى القوة والخصب، وهو إله العواصف، عبده «السومريون»، وسموه «انليل» وعبدوا البقرة الهة معه. (المطلبي، ١٩٨٠ : ٨٠)

وكان الثور عند « الحثيين » ـ في آسيا الصغرى ـ إله المطر والبرق والعواصف الرعدية، وهو إله عنيف، صعب المراس، يهيج دونما إنذار، وهو قوى ومخصب وعنيف، يرمز للقوة التناسلية. (فريزر، ١٩٥٧ : ١٠٥)

وكان « الآشوريون » يضعون الثيران المُجَنَّحة على أبواب قصورهم حارسة راعية؛ لأنهم كانوا يعبدون الإله «الثور» ويلتمسون عنده الحماية والرعاية. (المطلبي، ١٩٨٠ : ٨٦)

أمّا عند العرب القدماء فنجد إلهاً يسمى بعلاً، ورمزوا به للهلال. والقمر هو المقة، وهو أيضاً «هبل» الذي نصب صنمه في الكعبة رجلاً شاخاً ليكون السيد أو كبير آلهة العرب، والثور معناه: السيد والرب، وكان رمز الخصب والمطر. (نيلسن، ١٩٥٨ : ٢١٣)

ويمثل الثور « بعل » في الاعتقاد الكنعاني إله خصب الحقول والمواشي الذي يمتطى السحب، ويرسل الغيث والعواصف، وله ارتباط بالإلهة ابنة البرق. (المطلبي، ١٩٨٠ : ٨٨)

و (حاداد) أكبر الآلهة الذكور في سوريا ، وهو إله الرعد والخصب والمطر على هيئة «ثور» وهيكل الشمس في «بعلبك» يحوي تمثالا له ، يقبض بيسراه على صاعقة وسنابل قمح ، ويمثل (حاداد) في شمال «سوريا» برأس انسان له لحية وقرنان ، وهما رمز القوة والخصب (فريزر ، ١٩٥٧ :١١٣)

وفي «كنعان» كان الاله الثور «بعل» رمزا للخصب وعودة الحياة وتكاثر الاحياء (المطلبي ، ١٩٨٠ : ٨٩)

وكـان «بعـل » أكثـر آلهـة «الفنيقيين» تبجيلا وهو إله المطر . وتعبير الأرض التي تسقى من السماء «بعلا» الذي يجري على ألسنة سكان الشام أثر واضح من تلك العبادة . (يوسف ، ١٩٧٨ : ١٨٨) وكان «يهوه» عند العبرانيين في العصور القديمة يرسم في صورة «ثور» (نيلسن ، ١٩٥٨ ، : ٢٣٧) وقد فسر «عطية العوفي» قوله تعالى (سورة البقرة : أية ٦٠) «واذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرةَ عَيْناً قد علم كل أُناس مَشْرَبَهُمْ . . . » .

قال : جعل « موسى » لقومه حجرا مثل رأس «الثور» يحمل على ثور ، فإذا نزلوا منزلا وضعوه ، فضرب «موسى» ـ عليه السلام ـ بعصاه ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، فإذا ساروا حملوه على «ثور» فاستمسك الماء . (ابن كثير ، بدون تاريخ ج١ : ١٠٠)

وعَبَـدَ المصـريـون الثـور رمزاً للخصب ، وسموه «أبيس» وعد الملوك المصريون أنفسهم ثيرانا ، ولقبوا أنفسهم ثيرانا ، فقالوا بـ «الثور القدير» و «ثور السموات» ومعظم أساطير الخصب في مصر تعزو فيضان النيل لخصوبة «أبيس» الإله «الثور» . (المطلبي ، ١٩٨٠ : ٩٣)

وكانت عبادة « الثور » تجسيداً أرضياً لعبادة القمر السماوي ، فالقمر بمنازله المتغيرَّة قد ارتبط منذ زمن مبكـر بطقـوس الـزراعـة والخصب واستنـزال المطـر ، فرأوا الهـلال كقـرون الثـور ، والثور فيه قوة الاخصاب ، ومن هذه الجهة جاءت عبادة «الثور» ، وهذا يتفق مع طبيعة الإنسان القديم في الميل إلى التجسيم أكثر من ميلهم إلى التجريد العام .

وذكـر « الشهـرستـاني » أن الهنـود عبدوا أيضا القمر ، واتخذوا له صنماً على صورة «عجل» وبيد الصنم جوهرة (النويري ، ١٩٣٢ ، ج ١ : ٥٧)

ويرى بعض المؤرخين أن ديانات جميع العرب خاصة الجنوبيين تتصل بعبادة القمر ، فهو مقدم عنـدهم على الشمس ، لأن الشمس محرقـة ، أمـاً القمـر فهو دليل الركب ، ورسول القوافل ، فكان القمـر هو الأب السـماوي ، أمـاً الشمس فقد اتخذت منزلة الأم العظمى ، وليس عبثاً أن نرى في اللغة العربية التعبير «القمران» للشمس والقمر . ويتخذ القمر أسماء إلهية مختلفة في جزيرة العرب فهو «ورخ» و«سين» و«شهر» و«عم» و«المقه» و«ود» و«اللات» و«السيد» (نيلسن ، ١٩٥٨ : ٢٠٧)

وقد اتخذ العرب الجنوبيون من «الثور» رمزاً لإلههم «القمر» فعُدَّ من الحيوانات المقدسَّة التي ترمز إلى الآلهة ، وقد دعي القمر في بعض النصوص «ثورا» (نيلسن ، ١٩٥٨ : ٢٠٨)

وكـان «المقـه» إله «السبأيين» وهو يرمز إلى «القمر» ، وكان الناس يقدمون الثيران وحدها قرابين لهذا الإله (علي : بدون تاريخ ، ج ٥ : ١٤٣)

و « بعـل » كان يعـد إلهـاً وطنيـاً في «تدمر» وكانت عبادته استمراراً لعبادة الخصب والمطر التي كان «بعل» يمثلها في بلاد كنعان .

وكـان « ود » إلـه الثمـوديـين واللحيـانيـين ، وهـو نفسـه «المقه» الذي عبده العرب الجنوبيون ، ويـرمـزون إليـه بـ «الثور» بدليل وجود صورة رأس الثور في أكثر الكتابات اللحيانية والثمودية . (علي ، بدون تاريخ ، ج٥ : ١٢٣)

وعبـد « الأنبـاط » « ذوشرى » وهـويشـابـه إلـه الإغـريق «ديـونيسـوس» وكان على هيئة «ثور» (المطلبي ، ١٩٨٠ : ١٠٤) وقـد أشـار بعض الكتـاب الى «البقـرة» التي يعبـدهـا سكـان الصحـراء الأصليـون في المغـرب العـربي (ويللارد، ١٩٦٧ : ٤٣) . وتشـير الـروايات إلى أنه لما أجمعت قريش على هدم الكعبة المشرفة، أخرجوا ما كان فيها من حلي ومال و«قرني كبش» (أرجح أن المقصود : قرني ثور) وجعلوها عند أبي طلحة عبد الله بن عبد العزى . (النجم ، ١٤٠٣ هـ ، ج ١ : ١٤٩) وهكذا تعبد العرب للثور «بعل» إله الخصب والمطر في كل مكان ، وإلى ذلك أشار القرآن الكريم ، قال تعالى (الصـافـات ، ايـة ١٢٣ ـ ١٢٥) : «وإن إلياس لمن المُرسلين ، إذ قال لقومه ألا تَتَّقون ، أتدعون بعلاً وتَـذَرون أحسن الخـالقـين» ومعنى «بعـل» في اللغة العربية يحمل إشارات واضحة إلى عبادته القديمة فهـو : الصنم المعبـود ، وقيـل كان صنـماً من ذهب يعبدونه من دون الله ، والبعل : الرب ، والمالك ، والسيد . (ابن منظور ، بدون تاريخ ، مج ٢٠ مادة بعل) .

وقد سمي العرب ابن البقرة الوحشية بـ «الفَرْقد» والفرقدان نجمان معروفان ، لكونهما من صنف الحيوان المقدس .

وكان قتل الثور طقسًا صيدياً ـ كما يقول «براندون» في كتابه : (العقيدة في التاريخ القديم) ـ إذ كان يؤكـل عنـد بعض القبـائـل لكي يظفـر صائـده بإحـلال قوة معبوده وبعض صفاته فيه . (زكي ، ١٩٨٣ ، ٩٣)

واتخـذ الثـور تعـويـذة سحـريـة في طقوس الاستسقاء ، ومن جملة هذه الطقوس أنهم كانوا يحشون جلد «الثور» بالبذور الزراعية ، ويمزقون الجلد ليتدفق منه الحب فيمطرون . (النوري ، ١٩٨١ : ١٩٢) قال ابن الفقيه : على جبل «نهاوند» طلّسمان : صورة سمك وثور منحوتان من الحجر ، قيل إنهما لأجل الماء لئلا يقلّ أو ينْضب . (القزويني ، ١٩٦٠ : ٣٤٦ ـ ٤٧١)

وكـانت بعض القبـائـل تحرق معـدة أحـد الثيران عند حلول المساء ، لأن الدخان الأسود يجمع السحب ويسبب سقوط المطر .

وتقـدم قبـائـل «الأنجـون» قربـانًـا للمطر يتألف من أحد الثيران السود بينما ينحرون ثورًا أبيض لإحداث الجوّ الصّحو . (فريزر ، ١٩٧١ ، ج ١ : ٢٧٦)

قال جورج غيرستر (غيرستر ، ١٩٦١ : ٦٤) : إن الثور كان في بعض الحقب والأماكن معبودًا

لأنـه يمثِّـل الثَّـراء والقـوَّة ، فقـد كانت قرونـه تُمَثِّل القمر النامي ، وكان حليب البقرة رمزاً للخصب ، وكثـيراً ما عثـرنـا في القبـور السـابقـة لعهـود الإسلام على جماجم بشرية مختلطة جنباً إلى جنب بعظام الثـيران ، وكثـيراً ما نرى في الـواحـات جمجمة ثور قائمة على مداخل البيوت أوعلى الجدران المحيطة ببساتين النخل لحمايتهم من الحسد ومن المحتمل أن تكون هذه الخرافات التي عاشتها الأجيال الطويلة هي آخر ما تبقى من مظاهر عبادة الثيران التي تجمع بين الدين والسحر .

زعموا أن «بشر بن أبي خازم الأسدي» خرج في سَنة أَسْنَتَ فيها قومه ، وجهدوا ، فمروا بصُوار من البقر ، وإجْل من الأروى ، فذعرت منه ، فركبت جبلاً وعْراً ليس له منفذ ، فلما نظر إليها قام على شعب من الجبـل ، وأخـرج قوسـه ، وجعـل يشير إليها كأنه يرميها ، فجعلتْ تلقي أنفسها فتتكسر ، وجعل يقول :

تتابعي بقر ، تتابعي بقر
حتى تكسرت ، ثم قال:
أنت الذي تصنع ما لم يُصْنع
أنت حططت من ذرى مُقنَّع
كلَّ شَبوب لَـهَقٍ مُوَلَّعِ (الأسدي ، ١٩٦٧ : ملحق ١٠)

ولا شك أن تسـاقـط البقـر من أعلى الجبـال كان من التعـاويـذ السحـريـة الجـاهليـة المهمة في الاستسقاء ، وربما كان يقوم بهذه الطقوس ، الشعراء والسحرة والمتنبئون ، إذ كانوا إذا تتابعت عليهم الأزمات ، وركد عليهم البلاء ، واشتد الجدب ، واحتاجوا إلى االاستمطار ، اجتمعوا وجمعوا ما قدروا عليـه من البقـر ، ثم عقـدوا في أذنـابهـا وبـين عراقيبهـا السَّلع والعُشَـر ، ثم صعَّدوا بها في جبل وعر ، وأشعلوا فيها النيران ، وضجُّوا بالدعاء والتضرُّع فكانوا يرون أن ذلك من أسباب السقيا . (الجاحظ ، بدون تاريخ ،ج ٤ : ٤٦٦)

وقصـة بشـر بن أبي خازم تشـير إلى أن «الشعراء» كانوا يمارسون طقوس الاستسقاء ، فيقذفون بالبقـر من قمم الجبـال ، لأن الانسـان القـديم كان ينظر إلى الآلهة نظرة نفعية محضة ، فهم يُصعِّدون البقـر إلى الجبـال ، حيث تسمـع الآلهـة توسُّلاتهم وشكواهم ، ويضجُّون ويبتهلون . ونص النويري على أنهم يختـارون جهـة الغـرب دون الجهـات ، لأن السحب تثـور من تلك الجهة ، فإذا لم تستجب الآلهـة لتـوسلاتهم ، أشعلوا بين عراقيبها النيران كي تأتي بالمطر ، فتطفىء النيران ، ويذهب الجفاف والقحط ، وإن لم تأتِ بالمطر فهي تستحق ذلك المصير البشع .

والثـور رمـز الخصب والقـوة والإرواء ، وقـد كان العـرب إذا أوردوا البقـر فلم تشرب ، إماَّ لكدر المـاء ، أولقلَّة العطش ، ضربـوا الثـور ليقتحم المـاء . وقد علل الجاحظ ذلك فقال (الجاحظ ، بدون تاريـخ ، ج١ :١٨) : لأن البقـر تتبعـه كما تتبع الشول الفحل ، وكما تتبع أتن الوحش الحمار ، قال في ذلك عوف بن الخرع :

تَمَنَّتْ طيُ جَهْلاً وجُبْنـاً وقد خاليتُهم فأبوا خلائي
هجوني أنْ هجوتُ جبال سَلْمى كضَرْب الثَّور للبقر الظِّماء

وقال أنس بن مدرك :

إنَّ قتلي سُليكاً ثم أعقلُهُ كالثَّور يُضْرَبُ لما عافت البَقَرُ[٣]

وقال الهَيِّبان الفهمي :

كما ضُرب اليَعسُوب أن عاف باقرٌ وما ذنبه أن عافت الماء باقرُ

ولَماً كان الثور أمير البقر ، وهي تطيعه كطاعة إناث النحل لليعسوب سماه بإسم أمير النحل . وكانوا يزعمون أن الجن هي التي تصد الثيران عن الماء حتى تمسك البقر عن الشرب فتهلك ، قال الاعشى : (الاعشى ، ١٩٥٠ : ١٥١)

وإنِّي وما كَلَّفْتموني وربَّكم ليَعْلم من أمسى أعقَّ وأَحْرَبا
لكالثور والجنيّ يضربُ ظهره وما ذنبه أنْ عافت الماء مشربا
وما ذنبه ان عافت الماء باقرٌ وما إنْ تعاف الماء الاّ ليُضْربا

وقال يحيى بن منصور الذُّهلي في ذلك :

لكالثور والجنيّ يضربُ وَجْهَهُ وما ذنبه إنْ كانت الجنّ ظالمه

وقال نهشل بن حريّ :

أتتركُ عارضُ وبنو عديّ وتُغْرَمُ دارمٌ وهُمُ بَراءُ
كَدَأْب الثور يُضْرَبُ بالهَراوى إذا ما عافت البقرُ الظِّماءُ

(الجاحظ بدون تاريخ ، ج ١ : ١٩)

وليس ضرب الثور من قبيل ضرب القوي ليهاب الضعيف كما علل الجاحظ ، وإنما هذا إشارة لطقس سحري قديم ، مارسه الإنسان الجاهلي في حيواناته ، ولا شك أن هذا الطقس له علاقة بالسقيا والإرواء والإخصاب ، فربما كان ابتداء الثور بالشرب إغراء له كي ينزل المطر ، أو تكريماً لصانع المطر الذي كانت الغدران من فعله ونتاجه ، أو تذكيراً له بعواقب الجفاف والجدب : الإهانة والحرق بالنار .

وهـذه المـمارسـات السحـريـة بقايا طقوس واحتفالات قديمة تتصل بعبادة الثور وما يرمز إليه من الخصب والمطر . وقد جاءت صورة الثور في الشعر الجاهلي مرتبطة بذكر المطر والماء أو بتوجس نزول المطر وهبوب الريح الباردة ، وما يتبعها من برق لامع ، ورعد قاصف ، لأن الثور يمثل قوة إلهية قادرة على التحكم في الرياح والسحب والمطر.

وما عادة استسقائهم بالبقر إلا من مخلفات عبادة الثور ، وما يرمز إليه من الخصب والمطر ، ويبدو أن النـار المضُـرَّمـة في حطب السَّلَع والعُشَـر إنـما هي تطـور لطقوس واحتفالات قديمة تتصل بهذا الإله الثور . (المطلبي ، ١٩٨٠ : ١٠٧)

وقد نرى في وصف الشعراء للثور بقايا ذلك التراث الديني القديم الذي اندثرت طقوس عبادته ، ولم يبق منهـا سوى إشـارات موجـزة ، توحي بالمعتقـد القـديم وتـومىء إليه . ودائماً يؤكد الشعراء على العـلاقـة القـائمة بين آلهة السماء البعيدة ، وما يجسمها ويشخصها ويمثلها في عالم الأرض من حيوانات مقـدسـة ، لذلـك قرن الشعـراء صورة الثـور بصـور الكواكب المعبودة ، قال عبيد بن الأبرص : (ابن الأبرص ١٩٥٧ ، مجلد ٣ ج ١ : ٦٠)

كالكَـوْكَب الـدَّرِيّ يُشـرِقُ متنُـه ... خرصـاً خميـصـاً صُلْبُـهُ يتأوَّدُ

وقال أبو ذؤيب الهذلي : (الهذلي ، ١٩٣٧ : ١ / ٦٠)

من وحش حَوْضى يراعي الوحش مُبْتَقلا ... كأنَّـه كوكـبُ في الجَـوّ مُنْـحَـدِرُ

وقال أوس بن حجر (ابن حجر، ١٩٦٧ : ٣)

وانـقضَّ كالـدَّرِيّ يتـبـعـه ... نِقْـعٌ يثـور تَخَالُـهُ طنـبـا

وقال المثقب العبدي (العبدي، ١٩٧١ : ٤٩)

بَنـحـسـر الـغـمـرة عنـه كما ... ينـحـسـر الـنـجـم عن الفَـرْقَـد

وقال بشر بن أبي خازم الأسدى (الأسدى، ١٩٦٠ : ٥٥)

فبـات في حِقْـفِ أرطـاة يلوذُ بها ... كأنَّـهُ في ذُراهـا كَوكَـبٌ يَقِـدُ

وقال الأعشى الكبير (الأعشى ، ١٩٥٠ : ٣٩٧)

تجلو البـوارق عن طَيّـان مضطمـر ... تخالُـهُ كوكـبـاً في الأفْـق ثَقَّـابـا

وقال أيضا (الاعشى ، ١٩٥٠ ؛ ٢٧٩)

هجـن به فانـصـاع منـصـلتـاً ... كالـنـجـم يختـار الـكـثـيب أَبَـلْ

قال الأعشى أيضا (الأعشى ، ١٩٥٠ : ١٥٧)

وأدبـر كالشِّعـرى وضـوحـاً ونُقْبـةً ... يواعن من حَرّ الصـريمـة مُعظَـما

وعندما تهجم أغباش الدُّجى البهيم على الثور ، وتحصبه السماء بوابل من البرد والريح والمطر ، يلوذ الثـور وحيـدًا منكـرسـاً في كنف أرطـاة ، يحتفـر تحتهـا كِنـاسـاً هو أشبه ما يكون بصومعة المُتصَوف المُتَعَبِـد ، أو القـديس المتبتـل . . أحيانا تبدو عليه السكينة والوقار ، والتأمل والخشوع ، وأحيانا أخرى تظهـر عليـه علامـات الأرق والسُّهـد ، والقلق ، والتوتر ، والذُّعر ، والخوف ، والتوجُّس ، واليأس ،

والترقُّب ، والترصُّد . . . ينتظر المطر الذي يأتي بالحياة والخصب ، ويترقب الشمس والنور وانكشاف الهم .

وأحيانا نراه مَعْنِيّاً بترقب المطر ، وتأمل السماء ، والتفكُّر بمشكلات الجفاف ، فالثور يشمُّ البرق ليتعرف على مساقط المطر ، قال زهير بن أبي سلمى : (ابن ابي سلمى ، ١٩٤٤ : ٤٢ ـ ٥٧)

فسار منها على (شَيْم) يؤُمّ بها جنبَي عَماية فالرَّكّاء فالعُمَقا
(يَشِمْن بروقَهُ) ويرش أرْى الـ جنوب على حواجبها العَمَاءُ

والثور يوقد النار ويشعلها ، والنار ترتبط بالثور ارتباطا أساسيًا في طقوس الاستسقاء ، قال أوس بن حجر : (ابن حجر ، ١٩٦٧ : ٣ ـ ٤)

وانقضَّ كالدَّرِيّ يتبعه نِقْعٌ يثور تَخالُهُ طُنُبَا
يخفي وأحياناً يلوح كما رفع المُنير بكَفِّه لَهَبَا

وقال النابغة الذبياني : (الذبياني، ١٩٧٧ : ٦٥)

مُوَلَّى الريح رَوْقَيه وَجَبْهَتُهُ كالهَبْرَقيّ تَنَحَّى ينفُخُ الفحما

وأخذ الثور في تصور امرىء القيس شكل النار ، قال : (ابن حجر ، ١٩٦٤ : ١٠٢)

وبات إلى أرطاة حِقْف كأنَّها إذا ألْتَقَتْها غَبْيَةٌ بيتُ مُعْرس
فأدبر يكسوها الرّغام كأنهً على الصَّمْد والآكام جذوة مُقْبِس
فأدركْنَهُ يأخذنَ بالسَّاق والنَّسَا كما شَبْرَق الولدان ثوبَ المُقَدِّسّ

والبيت الأخير يدل صراحة على قدسية الثور في المعتقد الجاهلي ، فالأطفال يتمسحون بأثواب هذا القديس المتعبد الذي يملك قوى روحية كبرى .

ويأخذ الثور في التصور الجاهلي صورة الملك (صانع المطر) قال سحيم عبد بني الحسحاس : (الحسحاس ، ١٩٦٨ : ٢٩)

يُنَحِّي تُراباً عن مبيت ومكنس ركاماً كبيت الصَّيْدناني دانيا[٤]

وقال الاعشى الكبير : (الاعشى ، ١٩٥٠ : ٤٣)

ثم استمرَّ يُباري ظلّه جذِلاً كأنَّهُ مُرزبانٌ فاز مَحْبُور

ودائما ينفرد الثور متبتلا تحت الشجرة يتطهر بماء المطر ، مكبا كأنه يصلي صلاة يقضي بها نذوراً ، قال النابغة الذبياني : (الذبياني ، ١٩٧٧ : ٢١٥)

فبـات كأنَّـهُ قاضـي نُذُور شرى لله ينـتظـرُ الـصَّـبَـاحـا

وقال لبيد بن ربيعة : (العامري، ١٩٦٢ : ٧٦)

قبـات كأنَّـهُ قاضـي نُذُور يلوذُ يَغـرقـدٍ خَضِـلٍ وضَـالِ

والثـور في الشعـر الجـاهـلي يعاني الألم ، ويقاسي من الوحدة ، ويتوجس خيفة من عدو لا يراه ، ومن قوة عظمى لا يقـدر السيطـرة عليهـا ، ومن مستقبل غامض محفوف بالمخاطر والأهوال ، لكنَّ بوادر الأمن والسلام ممكنة : فالمطر ينسكب كأفواه القرب ، والشمس تنثر الدفء والشعاع الضئيل من بُعد، والأرطاة حمته من هبوب العاصفة .

وفي معظم الأحيان نرى الثور ونرى معه المطر ، والبرق يلمع على سَراته كجذوة اللّهب الأصفر ، وبصـرُه عالقٌ في السـماء ، مشـدود إليها ، يعالج الليل والريح والمطر ، ويدرأ بقرونه البرد الجامد ، والرعد المرجس . ويمكن القول : إن الحديث عن المطر لا يَتضح تماما في القصيدة الجاهلية إلّا عندما تُسرد قصة ثور الوحش ، لأن الثور رمز مشهور من رموز المطر . قال بشر بن أبي خازم الأسدي :(٥)

كأنهـا بعـد ما طال الـوجـيفُ بها من وحش خُبَّـةَ موشـيُّ الـشَّـوَى فَردُ
طاوٍ بَرَمْـلةِ أورالٍ تضـيَّـفَـهُ إلـى الـكِـنـاس عشـيٍّ باردٌ صَرِدُ
فبـاتَ في حِقْـف أرطـاة يلوذُ بها كأنَّـهُ في ذُراهـا كَوكَـبٌ يَقِـدُ
يجري الـرَّذاذُ عليـه وهـو منكرسٌ كما اسـتـكـان لشكـوى عينـه الـرَّمـدُ
باتت له العقـربُ الأولى بَنثْـرتهـا وَبـلَّهُ من طلوع الجَـبْـهَـة الأسَـدُ

وقال أيضا :(٦)

بأدمـاء من سِرّ المَـهَـارى كأنَّهـا بَحْـرَبـةَ موشـيُّ الـقـوائـم مُقْـفِـرُ
فبـاتـت عليـه ليـلةٌ رجـبـيـةٌ تُكَـفِّئُـهُ ريـحٌ خريـقٌ وتُمْطِـرُ
وبـاتَ مُكِبَّـاً يتَّـقيـهـا بَرْوقِـهِ وأرطـاة حِقْـفٍ خانهـا الـنَّـبْـتُ يَحفِـرُ
يثـير ويـبـدي عن عروق كأنَّهـا أعـنَّـةُ خَرَّازٍ تحطُّ وتُـبْـشَـرُ
فأضحى وصِئبـان الصَّقيـع كأنَّها جُمانٌ بضـاحـي متـنـه يتـحـدَّرُ

وقال الأعشي الكبير :(٧)

كأنَّهـا طاوٍ تَضَـيَّـفَـهُ ضربُ قِطـار تحُثُّـهُ شَـمْأَلْ
بات يقـولُ بالـكـثـيب من الـ ـغَـبْـيَـةِ : أصـبْـحْ ليـلُ ، لو يَفْـعَـلْ
مُنْـكَـرسـاً تحت الـغُـصُـون كما أَحْـنَـى على شمالِـهِ الـصَّـيْـقَـلْ

وقال أيضا : [٨]

كأنَّ كُوري وميسادي وميثرتي ... كَسَوْتُها أسفع الخَدَّين عَبْعَابا
أجأه قطْرٌ وشَفَّانٌ لمُرْتَكِمٍ ... من الأميل عليه البَغْرُ إكْثَابا
وبات في دَفّ أرطاةٍ يلوذُ بها ... يجري الرَّبابُ على مَتْنَيه تَسْكَابا
تَجْلُو البوارقُ عن طَيَّان مُضْطَمِرٍ ... تخالُهُ كَوكَباً في الأفْقِ ثَقَّابا

وقال ضابىء بن الحارث البرجمي : [٩]

فبات إلى أرطاة حقف تَلُفُّهُ ... شآميةٌ تُذرِي الجُمَان المُفَصَّلا
يوائلُ من وَطْفاء لم يَرَ ليلةً ... أشَدَّ أذىً منها عليه وأطْوَلا
وبات وبات الساريات يضِفْنَهُ ... إلى نَعِجٍ من ضائن الرمل أهيلا
شديد سواد الحاجبين كأنّما ... أسفَّ صَلًى نارٍ فأصبحَ أكْحَلا

وتحفل قصة الثور الوحشي برموز كثيرة لها علاقة بقدسية الثور ، وقدرته على صنع المطر ، وإخصاب الأرض ، وربما كانت هذه الرموز ترانيم طقوسية تتلى في معابد الإله «بعل» غير أن هذه الطقوس اندثرت باندثار ذلك الدين القديم . واحتفظ الشعر الجاهلي بإشارات قليلة تدل على شعائر كبيرة كانت تقام تمجيداً للثور ، ولعل قصائد الرثاء في الشعر العربي تحمل جانباً من المعتقدات القديمة في الثور ، فعندما يريد الشعراء ضرب المثل بحتمية الموت ، وتقلب الزمن ، وبطش الدهر ، يختارون «الثور» مثلا لذلك ، فعلى الرغم من ايمانهم بقدرات الثور الخارقة ، وقواه الجبارة ، وقدسيته ، يغلبه الموت ويصرعه ، ويتركه لقىً للفناء [١٠] . وفي معارك الثور الدامية يلازمه الكلب في جميع الجولات ملازمته لأصحاب الرقيم ، ولا شك انهم اصطادوا الثيران بالقِسِي والسهام والخيول والمخاتلة ، لكن اختيار الكلب في قصة الثور الوحشي ـ والتي لها ما يماثلها في نجوم السماء ـ اشارة إلى أساطير قديمة ومعتقدات اندثرت وسقطت من ذاكرة الزمن .

والثور دائما يعالج الظلمة ، ويبحث عن الشمس ، والشمس في المعتقد الجاهلي هي الآلهة الأم التي عبدها العرب وأقاموا لها الهياكل والمعابد ، والثور (القمر) هو الإله الأكبر أو الإله الأب . (نيلسن ، ١٩٥٨ : ٢٠٧ وما بعدها)

وقد نرى في بحث الثور عن الشمس وترقبه لها إشارة الى المعتقد القديم ، وتجسيدا لمفهوم الجاهليين لطبيعة هذين الإلهين : الذكورة والأنوثة ، وبحث كل منهما عن الآخر ، لذلك كان بزوغ الشمس أمراً محتوماً في قصة ثور الوحش .

ويتصف الثور في الشعر الجاهلي بالجلال والحكمة والجمال والهيج ، ومعظم الشعراء يؤكدون هذه المزايا فيه ، وهي أقرب ما تكون إلى صفات الآلهة القديمة منها إلى صفات البشر .

وقد يرى الإنسان القديم في معبوده نقائص الإنسان ، وعيوبه ، ومجتمع الآلهة ـ كما يراه الإنسان

القديم ـ لا يختلف عن مجتمع البشر ، فالمعبود قد يغضب وقد يُخْدَع ، وقد يحب ، وقد يكره ، ، لذلك كان الثور يتصف بصفات مجتمع البشر ، فقد وصفه الشعراء بالجرأة ، والغضب والحنق ، اليأس ، والجوع ، والتعب ، والثبات ، والوَهَل ، والشجاعة ، والهرب ، والعبوس ، ورسموا صوراً لهواجسه ووساوسه وتذكره وكرامته وشهامته ، وبعد أن ينتصر في المعركة التفتوا إلى علامات البِشْر والرّضى والانتصار والفرح والزَّهْو ، التي تغمر كيانه ، لذلك كان ينطلق على الإكام مشرقاً جذلاً محبوراً .

ويمكن أن نلحظ النار التي أوقدت في عراقيب البقر عند الاستسقاء في أوصاف الشعراء للثور ، وكثيرا ما يشيرون إلى «النار» عندما يصفون ثور الوحش :

فالثور يأخذ شكل النار في تصور أمرىء القيس كـ «جذوة مقبس» (ابن حجر ، ١٩٦٤ : ١٠٢) ، وهو حداد ينفخ في الفحم عند النابغة الذبياني (الذبياني ، ١٩٧٧ : ٦٥) ، وكأنما أسفَّ صَلَى نار عند ضابىء البرجمي (البرجمي ، ١٩٧٦ : ١٨٣) ، ويلوح في عتمة الليل والبرق يظهره (كما رفع المنير بكفه لهبا) (ابن حجر ، ١٩٦٧ : ٣) ، والكلاب تلمع في عراقيب الثور كالفتيلة الموقدة . قال لبيد بن ربيعة : (العامري ، ١٩٦٢ : ٢٤٠)

فَجَالَ ولم يعكم لغُضْفٍ كأنَّها ... دِقاق الشَّعيل يبتدَرن الجَعَائِلا

ويبيت الثور تحت غصون الأرطى ، والنار تنقدح حوله ، كأنه الصيقل الذي يشحذ السيوف فيتطاير منها الشرر . (الاعشى ، ١٩٥٠ : ٣١٥) أو كأنه نصل السيف الذي يشتعل متنه ضوءاً (العامري ، ١٩٦٢ : ٣٣٥) . ولا شك أن هذه التشبيهات في قصة ثور الوحش قد تبدو ملاحظات فردية دقيقة لمنظر البرق المتقطع ، الذي يخيف الثور ويهيجه ، لكن هذه الإشارات لا يمكن فهمها فهما رشيداً بمعزل عن الرؤيا الدينية الجاهلية التي شكلت هذا الشعر ؛ لأن الجاهلي كان يمارس طقوس الاستسقاء بعنصرين أساسيين هما : البقر والنار ، لذلك جاءت صورة النار متصلة بصورة الثور .

ونلحظ في قصة صور الوحش ضروباً من تكرار قوالب فنية لغوية محددة ، نحس من خلالها أنّ الشعراء جميعاً ينهلون من معين واحد ، يسيطر عليهم سحر كلمات محددة ورثوها من تراث الأمة ، ومن رواسب مظلمة في أعماقهم أو ما يمكن أن يدعى بـ «النماذج العليا» التي بنى عليها «كارل يونج» نظريته ، ولا شك أن الممارسات الطقوسية والسحرية تظل في ضمير الأمة تراثاً حيا مهما امتد الزمن ، والشعر الجاهلي لم يكن بعيدًا عن العفوية والفطرية ، ذلك لأن طبيعة العصر الجاهلي كانت طبيعة شعرية بصفة عامة تسيطر عليه القوة الميتافيزيقية التي تتحكم في صياغة الكلمات، لذلك كان التكرار اللفظي والأسلوبي معلماً أساسيًا من معالم الشعر الجاهلي ، لأن الشعراء جميعا ينهلون من التراث العربي المجهول المليء بالسحر والخرافة والتعاويذ والأساطير . .

وفي قصة ثور الوحش نلحظ تكرار الفعل «بات» عند كثير من الشعراء ، وهذا التكرار يكون اصطلاحاً نحتاج فيه ربط المجاز أو الرمز أو العلامة بأسطورة مجهولة المعالم (زكي ، ١٩٨١ : ١١٥ وما بعدها) ، ولننظر في الفعل «بات» في قولهم :

وبـاتَ إلى أرْطَـاةِ حِقْفٍ كأنَّهـا إذا ألْثَقَتْهـا غَبْيَـةٌ بَيْتُ مُعْـرِس (ابن حجر ، ١٩٦٤ ، ١٠٢)
وبـاتَ في دَفِّ أرطـاةٍ يلوذُ بها يجري الرَّبَاب على مَتْنَيْه تَسْكَابا (الاعشى ، ١٩٥٠ : ٣٩٧)
فبـات إلى أرطـاة حقف تلفه شآميـة تذرى الجـمان المفصـلا (البرجمي ، ١٩٧٦ : ١٨٢)
فبـاتَ إلى أرْطَـاة حِقْفٍ تَضُمُّـه شآميـةٌ تُزْجي الـرَّبَـاب الهَوَاطلا (العامري ، ١٩٦٢ : ٢٣٩)
فبـاتَ في حِقْف أرْطَـاةٍ يلوذُ بها كأنَّـه في ذُراهـا كوكـبٌ يقِـدُ (الاسدي ، ١٩٦٠ : ٥٥)
بات بحِقْفٍ من البَقَّـار يَحْفِـزُه إذا استكَفَّ قليـلاً تُربـه انهـدَمَا (الذبياني ، ١٩٧٧ : ٦٥)
فبـاتَ كأنَّـه قاضـي نُذُور شَرَى لله ينـتظـرُ الـصَّـبَـاحـا (الذبياني ، ١٩٧٧ : ٢١٥)
فبـاتَ كأنَّـه قاضـي نُذُور يلوذُ بغَـرْقَـدٍ خَضِـلٍ وضَـال (العامري ، ١٩٦٢ : ٧٦)
باتَـتْ عليـه ليـلةً رَجَـبيـةً نَصْبـاً تسـحُّ الماء أوهي أبْـرَدُ (ابن الابرص ، ١٩٥٧ : ٤٤)
فبـاتـت عليـه رَجَـبـيـةٌ تُكَـفِّئُـه ريـحٌ خريـقٌ وتُمْطـر (الاسدي ، ١٩٦٠ : ٨٢)
باتـت عليـه ليـلةً لشـقٍّ أوَّلُهـا شَنَّـانـةٌ ومَطَـرْ (البكري ، ١٨٥)
فبات يقول : أصْبِحْ ليلُ ، حتى تَجَلَّى عن صريـمتـه الظَّـلام (الاسدي ، ١٩٦٠ : ٢٠٤)
بات يقـول بالـكَـثـيـب من الـ ـغَبْيَـة : أصْبِحْ ليلُ ، لويفعل (الاعشى ، ١٩٥٠ ، ٣١٥)

إنَّ ضروب التكـرار السـابقـة ليست من قبيـل التكرار اللفظي والأسلوبي الذي يستند إلى قيمة بلاغيـة ، بل إنّ هذا التكـرار رمـزٌ ثابت في الأعماق المظلمة للشاعر الجاهلي الذي يؤمن بسحر الكلمات التي بقيت حيةً في ضمير الأمة بنضارتها وفطرتها ، فالثور «القمر» مُسْتَقَرُّه الليل ، لذلك نلحظ بوضوح أنّ «نـزول المطـر» لا يكـون إلّا ليـلاً ، وعنـدما تأتي «الشمس» يتوقف سقوط المطر ، وبَحْث الثور عن النـور ، واشتيـاقـه للشمس ، وتـرقبـه لها إشارة إلى المعتقد القديم ، وتجسيدًا لمفهوم الجاهليين لطبيعة هذين الإلهـين : الـذكـورة والأنـوثة ، لذلك كان بزوغ الشمس في قصة ثور الوحش أمراً محتومًا ولذلك أيضـا كان بَيَـات الثـور واستقراره في أعماق الظُّلمة لازمةً ضرورية في الشعر الجاهلي . وقرنا الثور يرمزان إلى «الهلال» لذلك يُبْرِزُ الشعراء قرون الثيران دون باقي أعضائها بروزاً واضحًا ، ويجعلون الثور مُكِبّاً على روقيه ، يتطَهَّر بماء المطر ، ويستقبل المطر بهما :

مُوَلِّي الـريـح رَوْقَيْـه وجَبْهَتَـه كالهَـبْرقي تَنَحَّى ينفُـخُ الفحـما (الذبياني ، ١٩٧٧ : ٦٥)
مولّى الـريـح روقيـه وجبهتـه حتى دَنَـا مِرْزَمُ الجـوزاء أوخَفَقَا (ابن ابي سلمي ، ١٩٤٤ : ٤٢)
مكبّـاً على روقيـه يحفُـر عِرْقَهـا على ظهـر عُريـان الطريقة أهْيَما (الاعشى ، ١٩٥٠ : ٣٣١)
وبـات مكبّـاً يتقيهـا برَوْقِـهِ وأرطـاة حِقْفٍ خانها النبتُ يحفرُ (الاسدي ، ١٩٦٠ : ٨٢)
إذا وكَـفَ الـغصـون على قَرَاه أدار الـروق حالاً بعـد حَال (العامري ، ١٩٦٢ : ٧٧)

والفعل «تَضَيَّفَ» يتكرّر في قصة ثور الوحش تكرارًا يستوعب معتقد الجاهليين في الثور وماله من قدسيـة وحـرمـة ، ومـا يرمـز إليـه من قدرة على الإخصـاب . . فعندما يستدعي الثور المطر يُلجئه الى استضافة شيئين :

الرملة العقيم التي تشتاق إلى المطر كي تلقح وتخصب .

وشجرة الأرطاة ، غالباً، وهي دائماً ، «أرطاة حِقْف» لا ماء حولها ولا غدير ، وقد يلفتنا الثور إلى نتاج المطر في الكثيب والحِقْف .

والضيف ـ في المعتقد العربي القديم ـ له حرمة لا تهان ولا تبتذل ، وحرمة الثور جاءت من دوره في الإرواء والإخصاب ، لذلك تكرّر الفعل «تَضَيَّفَ» في أشعارهم :

طاوٍ برملة أَوْرَال تَضَيَّفَه ... إلى الكِناس عَشِيٌّ باردٌ صَرِدُ (الاسدي ، ١٩٦٠ : ٥٥)

تَضَيَّفَهُ إلى أرطاة حِقْفٍ ... بجنب سُويقة رِهَمٌ وريح (الاسدي ، ١٩٦٠ : ٥١)

أَضَلَّ صواره وتَضَيَّفَتْهُ ... نَطُوفٌ أمرُها بيد الشَّمال (العامري ، ١٩٦٢ : ٧٦)

تَضَيَّف رملة البَقَّار يوماً ... فبات بتلك يضرُبُه الجليد (الاعشى ، ١٩٥٠ : ٣٦١)

كأَنَّه طاوٍ تَضَيَّفه ... ضَرْبُ قطار تحته شَمْأَلْ (الاعشى ، ١٩٥٠ : ٣١٥)

أو فريدٍ طاوٍ تَضَيَّف أَرْطَا ... ةً يبيتُ في دَفِّها ويُضَاقُ (الاعشى ، ١٩٥٠ : ٢٤٩)

وباتَ وباتَ الساريات يُضِفْنَه ... إلى نَعِج من ضائن الرَّمل أَهْيَلا (البرجمي ، ١٩٧٦ : ١٨٢)

الهوامش

١) الكور : الرحل ـ الانساع : ما يشد به الرحل ـ الميثرة : ما لين به الرحل المشب : الثور الشاب أو المسن ـ اللهق : الابيض ـ أوراك وناصفة : من بلاد بني تميم ـ نفق : نفد ـ شأوه : تطلبه ومداه ـ تعز به : تباعده ـ تطرف : أكل من أطراف النبت ـ أنقا : معجبا ـ العشر والخمس : من الاظماء ـ يبدن : يضخم ـ زهق : سمن ـ على شيم : منظر قد شامه وقصده ـ عماية والركاء والعمق : اسماء مواضع ـ الصفصف : المستوى من الارض ـ القرق : الأملس ـ القر : البرد ـ اطرق : ركب بعض شعره بعضا ـ خطف : سريع ـ الخرق : العجلة والعجرفة ـ شدها : عدوها ـ يمري : يستخرج كما يستدر الحالب لبن الناقة ـ تداعى : تساقط بعضه في إثر بعض .

٢) الاخنس : الثور القصير أرنبة الانف ـ واحف : مكان ـ تضيفته : نزلت به سحابة تنطف بالماء ـ الغرقد : شجر ـ الضال : سدر البر ـ وكف : قطر ـ القرا : الظهر ـ الروق : القرن ـ الهالكي : الصيقل ـ النقب : الصدأ واللون ـ الغضف : الكلاب المسترخية الآذان ـ ضواريها : صوائدها ـ جال : فر ـ الحفيظة : الغضب ـ ملحم : كلب يطعم اللحم ـ الفريصة : بضعة في مرجع الكتف ـ طحال : اسم كلب ـ يشك : يطعن ـ صفاحها : جنوبها ـ السراد : السير الذي يخصف به ، والمسرد : المثقب اوالمخرز ـ النقال : الرقاع ـ الغمرات : كربات القتال ـ المراهن : الفرس الذي عليه الرهان ـ الفيال : لعبة معروفة يخبأ فيها شيء بالتراب ليعرف مكانه ـ يقتري : يتتبع ـ الحومان : الاماكن الغلاظ ـ حودث : جلى مرة تلو أخرى .

٣) قيل : الثور : معناه الطحلب . لأن البقّار اذا أورد القطعة من البقر فعافت الماء ، وصدها عنه الطحلب ، ضربه ليفحص عن الماء فتشربه .
انظر : اللسان . مادة (ثور) ، لكن النصوص الأخرى تخالف هذا التفسير .

٤) الصيد ناني : الملك .

٥) انظر : بشر بن ابي خازم الاسدي (ت ٣٢ ق . هـ / ٥٩٠ م) الديوان ص ٥٥ .
الصرد : الشديد البرد ـ منكرس : منكب ـ العقرب : برج من بروج السماء وله من المنازل : الزباني والشولة والقلب ـ نثرتها : مطرها .
٦) ديوان بشر بن أبي خازم الاسدي ، ص ٨٢ رجبية : من ليالي شهر رجب ـ تكفئه : تميله .
ـ الخريق الريح الباردة ـ أعنة الخراز ، سيور الجلد التي يقدها الخراز لعمله ـ بشر الأديم : فشر بشرته التي ينبت عليها الشعر .
٧) انظر ديوان الأعشى الكبير : ص ٣١٥ .
القطار : المطر ـ الغبية : الدفعة الشديدة من المطر ، منكرساً : مندساً على وجهه ـ الصيقل : الذي يشحذ السيوف ويجلوها ـ أحنى : انحنى .
٨) ديوان الأعشى ، ص ٣٩٧ وما بعدها .
الكور : الرحل ـ الميساد : الوساد ـ الميثرة : حشية توضع تحت الرحل ـ العبعاب : الطويل التام ـ شفان : ريح وبرد ـ مرتكم : مجتمع ـ الأميل : الحبل من الرمل مسيرة يوم طولا ـ البغر : الدفعة الشديدة من المطر ـ اكثابا : من الكثب وهو الجمع والصب ـ طيان : جائع من الطوى ـ مضطمر : من الضمور .
٩) انظر ضابىء بن الحارث البرجمي (جاهلي مخضرم) : الاصمعيات : تحقيق : عبد السلام هارون ، واحمد محمد شاكر ، طبع دار المعارف بمصر ، سنة ١٩٧٦ م ص ١٨٢ . يوائل : يحاذر ويلتمس الملجأ ويطلب النجاة ، الوطفاء : السحابة التي فيها استرخاء لكثرة الماء ـ الساريات : السحب التي تسرى ليلا ـ نعج : ابيض خالص البياض ـ ضائن الرمل : الرمل العريض ـ الأهيل : الذي لا يثبت ـ صلى : اسم للوقود ـ أسفه : ذر عليه .
١٠) انظر رأى الجاحظ في ذلك (الحيوان ج ٢ ، ص ٢٠)

المراجع العربية

القرآن الكريم :
ابن الأبرص ، عبيد — **الديوان** ، تحقيق الدكتور حسين نصار ، القاهرة : مطبعة البابي الحلبي ، ١٩٥٧ م .
ابن ابي سلمى ، زهير — **الديوان** ، القاهرة : طبع دار الكتب المصرية ، ١٩٤٤ م .
ابن حجر ، أوس — **الديوان** ، تحقيق محمد يوسف نجم ، بيروت : دار صادر ، ١٩٦٧م .
ابن حجر ، امرؤ القيس — **الديوان** ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة : طبع دار المعارف بمصر ، ١٩٦٤ م .
ابن كثير ، ابو الفدا اسماعيل — **تفسير القرآن الكريم** ، القاهرة : مطبعة البابي الحلبي ، بدون تاريخ .
ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى (٦٣٠ ـ ٧١١ هـ) — لسان العرب ، القاهرة : مطبعة بولاق ، مج ٢٠ ، مادة بعل ، بدون تاريخ .
الاسدي ، بشر بن ابي خازم — **الديوان** ، تحقيق عزة حسن ، دمشق : ١٩٦٠ م .
الأعشى الكبير ، ميمون بن قيس الأنصاري — **ديوان الأعشى** ، تحقيق محمد محمد حسين ، مصر : مطبعة الآداب بالجماميز ، ١٩٥٠ م .
البرجمي ، ضابىء بن الحارث — **الأصمعيات** ، تحقيق عبد السلام هارون واحمد محمد شاكر ، القاهرة : مطبعة دار المعارف بمصر ، ١٩٧٦ م .
الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر — **كتاب الحيوان** ، تحقيق عبد السلام هارون ، مصر : مطبعة البابي الحلبي ، بدون تاريخ .
الذبياني ، النابغة — **الديوان** ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة : دار المعارف بمصر ، ١٩٧٧ م .
زكي ، احمد كمال — ـ **شعراء السعودية** ، الرياض : مطبعة دار العلوم ، ١٩٨٣ م .
ـ «التفسير الأسطوري للشعر القديم» **مجلة فصول** ، المجلد الأول ، العدد الثالث ، ابريل ، ١٩٨١ م .

السكري — **شرح أشعار الهذليين** ، تحقيق عبد الستار فراج ، القاهرة ، **١٩٣٧** م .

العامري ، لبيد بن ربيعة — **الديوان** ، تحقيق إحسان عباس ، الكويت : وزارة الإرشاد والأنباء ، **١٩٦٢** م .
عبد بني الحسحاس ، سحيم — **الديوان** ، تحقيق عبد العزيز الميمني ، القاهرة : دار الكتب المصرية ، **١٩٦٨** .
العبدي ، المثقب — **الديوان** ، تحقيق حسن كامل الصير في ، معهد المخطوطات العربية ، **١٩٧١**م .
علي ، جواد — **تاريخ العرب قبل الإسلام** ، بغداد : مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، بدون تاريخ .
غيرستر ، جورج — **الصحراء الكبرى** ، ترجمة خيري حماد ، بيروت : المكتب التجاري ، **١٩٦١** م .
فريزر ، جيمس — ـ **أدونيس** ، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا ، بيروت : دار الصراع الفكري ، **١٩٥٧**م .
— ـ **الغصن الذهبي** ، ترجمة احمد أبو زيد وآخرين ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة ، **١٩٧١** م .

القزويني ، زكريا بن محمد (ت : **٦٨٢** هـ) — **آثار البلاد وأخبار العباد** ، بيروت : دار صادر، **١٩٦٠** م
المطلبي ، عبد الجبار — **مواقف في الأدب والنقد** ، بغداد : وزارة الثقافة والإعلام ، **١٩٨٠**م .
النجم ، عمر بن فهد — **إتحاف الورى بأخبار أم القرى** ، مصر : مكتبة الخانجي : **١٤٠٣** هـ.
النوري ، قيس — **الأساطير وعلم الأجناس** ، الموصل : طبع دار الكتب ، **١٩٨١** م .
النويري ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت : **٧٣٣** هـ) — **نهاية الأرب في فنون الأدب** ، القاهرة : دار الكتب المصرية ، **١٩٣٢** م
نيلسون ، ديتلف وآخرون — **التاريخ العربي القديم** ، ترجمة فؤاد حسنين علي ، القاهرة : مطبعة لجنة البيان ، **١٩٥٨** م .
ويللارد ، جيمس — **الصحراء الكبرى** طرابلس ـ ليبيا : مكتبة الفرجاني ، **١٩٦٧** م .
يوسف ، شريف — «الكعبات المقدسة عند العرب قبل الإسلام» **مجلة المجمع العلمي العراقي** ، مجلد **٢٩** ، **١٩٧٨** م .